المعرفــة والعبــادة

أنور الزعبي *

تاريخ وصول البحث: 2005/4/4م تاريخ قبول البحث: 2005/6/27م

ملخص

يلقى هذا البحث الضوء على علاقة المعرفة بالعبادة والعبادة بالمعرفة، أو العلم بالعمل والعمل بالعمل بوصفها متداخلين متلاحمين غير منفكين، ويهدفان معاً إلى ترقية الإنسان وصلاحه في دنياه وآخرته، وذلك من خلال استقراء الآيات القرآنية التي تبين هذه العلاقة في مراحلها المختلفة منذ بدايتها في طور النشأة والتمييز حتى نهايتها في عالم المعاد حيث ينفتح أفق الخلود، الأمر الذي ييسر للإنسان المؤمن استيعاب الأفق الواسع المنفتح الذي ينبغي أن يرى الأشياء والأفعال والآيات من خلاله، ليسير فيه سيراً حثيثاً يمكنه من استبصار آيات الله في الآفاق والأنفس مما يعوده إلى السكينة ويعود عليه بالخير العميم والتأهل لمرافقة الملأ الأعلى.

Abstract

This research sheds some light upon the intertwined relationship between knowledge and worship or knowledge and work; all being inseparable matters that aim together to man's elevation and goodness in this world and the afterlife.

This explanation is achieved through examining Quranic verses that address this relationship at its different stages from its very beginnings in genesis to its end in the hereafter. Such understanding facilitate to the believers comprehending that broad horizon through which they should view all things, deeds, and Quranic verses.

All these thoughts should lead the believers into witnessing God's miracles in the surrounding world and within ourselves, which eventually should enable them to achieve inner peace, live in abundant blessings, and entitle them to join those in Heaven

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى إبراز حقيقة بالغة الأهمية تضمنتها الشريعة الإسلامية، وكان لها دور محوري في توجه المفكرين المسلمين نحو طلب المعرفة بكل أنواعها، والأخذ بما تمليه بكل جدية ومثابرة، بل هي التي بعثت فيهم الحميّة والحيوية لتحصيل المعرفة والتسامي بها، حتى بلغت مبلغها المثير في إنشاء الحضارة العربية الإسلامية مما وقف عليه كل متابع ومطلع.. وأعني بهذه الحقيقة ارتباط العبادة بالمعرفة ارتباطاً لا انفكاك فيه.

ومع أن مفهوم المعرفة يختلف عن مفهوم العبادة في بعض جوانبها، كما أن مفهوم العبادة يختلف عن مفهوم المعرفة في بعض جوانبه أيضاً، إلا أن التقاطع بينهما يشكل مساحة كبيرة جداً في العرف الإســـلامي، حتى إننا لا نستطيع التوقف عند حدّ، والتقاطع أو التماهي – بهذا الشكل– حقيقة، هو الذي دفع بالتجربة العربية الإسلامية للترقي والتسامي، نظرياً وعملياً، بسهولة بالغة، بحيث أصبحت الحضارة العربية الإسلامية في فترة وجيزة حقيقة راسخة، ومنارة للمعرفة والعلم والسلوك السوي على المستوى البشري كله، ونبراساً للتأسي والاقتداء من كل فرد أو جماعة تسعى إلى إثبات ذاتها والتقدم والارتقاء، سواء أكانوا مسلمين– وهؤلاء بلغوا الذروة في التقدم والفعالية – أو غير مسلمين– وهؤلاء ترك الإسلام أثره فيهم ونقلهم إلى سوية أعلى في علمهم وسلوكهم –، ففضلاً على استقطاب الشريعة للأفراد والجماعات والأقوام المختلفة، مما حواه العالم القديم، للدخول في هذه

* أستاذ مساعد في الفلسفة الإسلامي.

التجربة والانخراط فيها، وقد شمل هذا حشدا هائلا من الناس، من الصين حتى الأندلس، فإن الأفراد والجماعات والأقوام الأخرى، التي لم تدخل في الإسلام وكانت على صلة به، بشكل أو بآخر، قد استفادت منه في تقدمها وترقيها، وكانت موفقة في التواصل مع هذه التجربة والاستفادة منها في كثير من شؤون حياتها، على الرغم من بقائها على معتقداتها المنحرفة أو غير الدقيقة في بعض توجهاتها.. ذلك أن إنجاز الحضارة العربية الإسلامية لم يكن بالوسع تجاهله، وهي التي أصبحت مركز الإشعاع الحضاري للعالم قاطبة، ووارثة المعطى المعرفي لحقبة طويلة.. ولو أخذنا مثالاً على هذا، التجربة الأوروبية في العصر الوسيط، ثم ما وصلت إليه هذه التجربة من تقدم ترك تأثيراً واسعاً على الحياة البشرية فيما بعد، حتى على العالمين العربي والإسلامي، لوجدنا أنها قد اعتمدت في انطلاقها وتطورها على كثير مما أنجزته الحضارة العربية الإسلامية، التي أضحت خلال عنفوانها نموذجاً يحتذى في معظم المجالات، وهذا من بركة الإسلام باعتباره رسالة مباركة لم يفرط فيها من شيء، تزخر بالطاقة الفياضة الدافعة للتقدم والرقي..

وما تتضمنه الشريعة من تعاليم وإرشادات تحض على النافع المفيد وتسهيل سبل الوصول إليه، هو الذي كان له الفضل الأول في كل هذا.. وإذا ما كان من تراجع مؤسف قد حدث للتجربة العربية الإسلامية في حقبات لاحقة، أو ضلال وانحراف خطير حدث ويحدث في التجربة الغربية اللاحقة، لا سيما ما يحدث منذ بداية القرن الماضي إلى الآن، وما يتوقع له أن يتفاقم في ظل التطورات الحالية الخطيرة، فمما يرد إليه هذا الضلال والانحراف وذاك التراجع، هو تقليص مساحة ارتباط المعرفة بالعبادة، بل ومحاولة فصلهما بعضهما عن بعض، ناهيك بعدم الاعتراف بدور العبادة أصلاً في شؤون الحياة، أو عدم الاعتراف بدور المعرفة في العبادة وتماهيها فيها..

ولكي نقف على مدى ارتباط المعرفة بالعبادة في التجربة العربية الإسلامية، سنستقرئ هنا دور القرآن الكريم والسنة الشريفة في الحرص على بيان هذا الارتباط وترسيخه، بما يصلح الحال والمآل للتجربة الإنسانية، مما تم التنبيه عليه في غير موضع..

يقول الله تعالى منوهاً بدور القرآن الكريم المعرفي، وأنه تعريفي برهاني يوضح الأشياء، ويعدل دوره دور النور في استبانة الأشياء ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾[174: النساء]، ويقول سبحانه: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾[1: إبراهيم]، ويقول أيضاً: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [44: النحل]، ولنلاحظ هنا أن الخطاب شامل للناس كافة، وأن النور ذو ارتباط أساس بالمعرفة، لأن جميع ما في القرآن الكريم هو تعريف وتبيين نوراني، سواء للمسالك والأساليب المعرفية، أم الموضوعات المعرفية، نظرية كانت أم عملية..

وإذا ما تقصينا دور الرسول الكريم في هذا، لوجدنا أن دوره يرتبط بالتعريف و التبيين أيضا أوثق ارتباط، سواءً في بيان القرآن الكريم، أو ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، يقول سبحانه وتعالى واصفاً دور الرسول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾ [45-46: الأحزاب]، وبهذا فالرسول نور أيضاً، ودوره دور معرفي أساساً، يقول تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [52: الشورى].

وإذا ما كانت هذه الآيات واضحة في بيان دور الرسالة المعرفي وما يتضمنه القرآن الكريم والسنة الشريفة من معرفة، فإن دور المؤمن مرتبط بهذه المعرفة أيضاً، وإن مهمته أن يستنير وينور حقاً، يقول

تعالى ﴿**وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** ﴾[28: الحديد]. وإذا ما عدنا إلى ما كان عليه الوضع قبل نزول الرسالة، لتبين لنا عظم الدور المعرفي الذي أنيط بالقرآن الكريم والسنة الشريفة والمؤمن بهما، يقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [2: الجمعة].

ولنلاحظ هنا ارتباط المعرفة أو الحكمة بالعبادة، ليس من الناحية النظرية فقط، ولكن من الناحية العملية السلوكية أيضاً، فالتزكية تتجاوز التحلي بالمعرفة النافعة الفضلى إلى التعامل السوي الرفيع.. وهذا جميعاً يقود إلى رضا الله سبحانه وتعالى والأنس بعزته، يقول تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [10: فاطر] وبهذا فلا ارتقاء إلا بنظر وعمل من غير انفكاك.. يضاف إلى هذا أن أي مقارنة بين ما كان الناس عليه قبل الإسلام وبعده من اهتمام بالنظر والعمل تبين بوضوح قيمة الشريعة في جعل الفارق بين الوضعين شاسعاً بأي مقياس، إذ علا شأن الأقوام المسلمة، وتقدمت المعرفة بما لا يقاس بما كانت عليه سابقاً، ويقول سبحانه أيضاً: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [3: الصف]، ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [33: فصلت].

أما من حيث شمول هذه المعرفة وتوجيهها القويم دون التوقف عند حد، فيبصر القرآن بهذا بقوله: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[89: النحل]، ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾**[38: الأنعام]**، ﴿**.. وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [41– 42: فصلت]، ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [9: الإسراء].

والمعرفة التي يتضمنها القرآن الكريم لا حدود لها حقاً، فقد جاءت عامة وشاملة لكل الأساليب والمسالك والمناحي المعرفية، نظرية كانت أم عملية، وكذلك المعلومات والأخبار، سواءً ما تعلق منها بالماضي أو الحاضر أو المستقبل، بما فيه عالم الغيب، بأشكال عديدة، عبر التبيين، والتمثيل، والتنبيه، والأمارة، والإشارة، وغير هذا من أساليب يمكن اعتبارها مفاتيح لجميع العلوم، مما سنقف عليه لاحقاً.. وكل هذا عند النظر والتفكر والتدبر فيه، والعمل بمقتضاه (وهذه مصطلحات قرآنية) سنجد أنه ثري ثراءً معرفياً وسلوكياً بالغاً، وقابل للاستثمار بغير حدود، وإن كان لهذا الاستثمار ضوابطه، وكان بعضه يحتاج شيئاً من التأويل لفهمه.

وعلينا هنا أن نتنبه إلى الضوابط التي يجب أن تخضع لها المعرفة، النظرية منها والعملية، وأن نتنبه إلى وجوب ضبط التأويل، وإلا التوقف كي يصبح التأويل أكثر إحكاماً.. ففيما يتعلق بالانضباط المعرفي، فإن المعرفة لها مستوياتها مما يتناسب مع كل وقدرته، والله سبحانه وتعالى له جلاله وقدره، يقول تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ [12: الطلاق] ، ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء** ﴾[255: البقرة]، ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾[21: الحجر]، فالأمر إذن مقدر ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴾[2: الفرقان]، ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾[8: الرعد]، ﴿**وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** ﴾ [28: الجن]، ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**﴾[43: فاطر] ، وبهذا فإن المعرفة غير محدودة من جهة ولكنها منضبطة من جهة أخرى..

وإذا ما أخذنا بالاعتبار اختلاف المستويات المعرفية وقابلية التدرج فيها، لوجدنا أن هذه المعرفة بالنسبة للإنسان تبدأ أساساً من الصفر، وقبل التعرف إلى أي شيء، يقول الله تعالى: ﴿**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ**

وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [78: النحل]، وهذا له صلة بالتقدير والمقدار أيضاً.. غير أن هذه المعرفة لا تلبث أن ينفسح مجالها أولاً بأول بما أودعه الله الإنسان من أدوات كالحس والعقل، تعينه على النظر والتفكر والتدبر، يقول تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾[5-7: الطارق]، ويقول: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ**﴾ [191: آل عمران] ويقول سبحانه: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾ [82: النساء].. ثم أيضاً لا تلبث هذه المعرفة أن تنداح بما أودعه الله الإنسان من عقل قادر على الاستدلال، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [13: الجاثية] ، ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [24: محمد]، ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ [2: الحشر]، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ [13: آل عمران].

ولا تتوقف المعرفة أيضاً عند هذا الحد الاستدلالي وإنما تصل إلى مستويات أرقى فأرقى، لا سيما بممارسة التفكر في كتاب الله ومخلوقاته وممارسة العبادة، والعبادة هنا ليست رسوماً وتكليفات فحسب وإنما هي أيضاً نظر وتفكر وتدبر، ويشمل هذا كل ما يكون مجالاً للنظر والعمل فهذا يتيح للعابد أن تنفتح أبواب المعرفة له من سوية أعلى، لا بشؤون الحياة وشجونها فحسب، بل بالمعرفة التي وردت مجملة أو مشكلة مفتاحاً لعلم من العلوم الواردة في القرآن الكريم وسنة نبيه عن كل شيء.. وبهذا فالأمور مرتبط بعضها ببعض، المعرفة بالعبادة، والمستويات والموضوعات المعرفية درج بعضها إلى بعض.. يقول تعالى منبهاً إلى هذا الطور المعرفي الأرقى والذي لا يحصل إلا عن طريق العبادة، مما يعني تماهيه فيها ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [69: العنكبوت]، ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [99: الحجر]، وهذا لا يقلل من شأن المعارف المكتسبة سابقاً، أو المستويات التي تم الترقي عنها، فلكل مجاله وأهميته، ذلك أنه إذا وصل العالم، أي عالم، عن أي طريق ومستوى، إلى معرفة حقة، مما يسره الله له، بحيث أصبح متبحراً في علمه الذي أحسن، فإنه سيرى في هذه الحالة، أن ما أودعه الله من علم في الشريعة حقاً يقيناً، يقول تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [6: سبأ]، ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [53: فصلت]، وسيترك هذا فيهم خشية الله سبحانه وتعالى نظراً لرهبة الأفق المعرفي الذي يوغلون فيه وسعته وعدم محدوديته، ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾[28: فاطر]، وهذا يقود إلى أن المعرفة تفضي إلى العبادة، و أن العبادة تفضي إلى المعرفة، وأن للمعرفة كما للعبادة مستوياتها الموازية بعضها لبعض..

أما إذا تماهت المعرفة بالعبادة والعبادة بالمعرفة عند هذا العالم العابد، أو العابد العالم، فحينئذ سيرتقي إلى معرفة عزيز نوالها، ويصبح نور الله (القرآن الكريم) ونور رسوله (السنة الشريفة) يعضد نور هذا المؤمن ليرتقي ويدخل في أجواء معرفة لا يبلغ مداها.. ولكنه مع هذا يبقى دون غاية الوصول القصوى التي لا يمكن بلوغها إلا في الآخرة لمن فاز، فأصبح مستحقاً لنوع من المعرفة لا يتيسر في هذه الدنيا، وهنا يقف المؤمن (العالم العابد) مناشداً ربه إلى أن يجعل نوره تاماً.. يقول تعالى مبصِّراً بوجود مراحل معرفية ومستويات تتجاوز ما سبق، تتجاوز المعرفة خلال الحياة الدنيا ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ [22: ق]، وفي هذه الحالة ينشأ وضع معرفي مستجد، بعده يتم الابتهال إلى الله تعالى أن يتم نوره على المؤمنين بجعل معرفتهم تامة ﴿**يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا**﴾ [8: التحريم].

وبهذا يتبين لنا أن مستوى المعرفة الدنيوية بتدرجاتها من نقطة الصفر إلى ما تهيئه الغريزة والفطرة، فالحواس والعقل، ثم الاستدلال، حتى الرؤيا والعيان، وكذلك الوحي، يعقبها معرفة لا تتوفر إلا في الحياة الأخروية لمن فاز بتجربته الدنيوية ورضي الله عنه، حيث يومئذ ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [21-22: القيامة] وحيث "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" (الترمذي: 3292)، وإذا ما تبصرنا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [85: الإسراء]، ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [76: يوسف]، ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾[83: الأنعام]، لتبين لنا أن مجال المعرفة، سواء ما كان منها دنيوياً أو أخروياً، ذا مستويات عديدة، كل منها مفتوح الآفاق ويتناول جانباً من جوانبها الفعلية، يقول تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾[109: الكهف] ، ولا يغررنا محدودية كلمات كتاب الله وسنة نبيه بأزاء هذه القدرة العظيمة التامة، فإن في التمثيل بعض ما يفتح الطريق، يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [24-25: إبراهيم]، ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ [64-65: النحل]. ولنلاحظ هنا هذا التمثيل البين بين دور المياه في بعث الحياة بكل أشكالها في الأرض الموات وبين دور القرآن الكريم في تنامي المعرفة وانديا حها في قلوب المؤمنين...

إن هذا وغيره يبين لنا ذلك الارتباط غير المحدود بين المعرفة والعبادة، وإذا ما أخذنا من جهة أخرى أن العبادة أصلاً تستلزم المعرفة، وأن العبادة ملزوم لها، من حيث أن العبادة لا تستقيم بغير المعرفة بكيفية أدائها، ولماذا تؤدي، ولمن تؤدى، ومعرفة كيفية إصلاحها لدنيا المؤمن وآخرته، وأخذنا من جهة إضافية أن العبادة بكل أشكالها كسلوك سوي، تجعل الإنسان يتحيز للمعرفة النافعة المفيدة والحرص على طلبها، وتجنب المعرفة الضارة، لوضح لنا لم كان هذا التلازم، يقول تعالى مبصراً بدور الآيات القرآنية والكونية، وأن عدم النظر والتفكر والتدبر فيها خسراناً مبينا، ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [191: آل عمران] ، ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [20-21: الذاريات] ، في حين لو تبصروا الأمر جيداً، وهم مستغرقون بالعبادة تلاوة ونظراً وتفكراً وتدبراً، في ملكوت السموات والأرض، وفي أنفسهم، لتبين لهم أن هذا لم يخلق عبثاً أو باطلاً، وأن عليهم استثماره جميعاً بما يقودهم إلى معرفة نافعة، تقودهم بدورها إلى معرفة الله سبحانه وتعالى وطاعته وإصلاح دنياهم وآخرتهم..

لو عدنا الآن إلى مجريات الأحداث الفعلية إبان حمل الرسالة ونشرها، لوضح لنا دور المعرفة التي جاءت بها الشريعة في نشأة العلوم الشرعية والحكمية، وبالتالي قيام الحضارة العربية الإسلامية وترقيها وتساميها، فكل هذا حصل ببركة الشريعة والمعرفة التي تهيئها وتحفز للمضي فيها.. ومن هنا أصبحت الحضارة العربية الإسلامية معلماً لا يضاهى في مختلف المناحي المعرفية، النظرية والعملية، ولا سبب رئيس يمكن تقصيه وراء هذا الزخم سوى تضمن الشريعة للمعرفة بمختلف وجوهها، والحض على الأخذ بها، وإيلائها مرتبتها اللائقة، لأنها هي التي

تصلح للإنسان حياته وآخرته وتعود عليه بالخير العميم، بل هي ما أنزلت إلا لهذا..

وإذا ما بدا لنا –كما أشرنا– إلى أن هذه المعرفة مفتوحة الآفاق فعلاً ولا تحدها الحدود، فإن ثمة مسؤولية كبرى بإزاء كيفية نوال هذه المعرفة والتصرف بها بقدرها اللازم، ومعنى هذا السير فيها سيراً منضبطاً بما ينبغي لها أن تسير فيه، بما ينفع الإنسان ويصلح حاله ومآله، لا تركها على عواهنها دون تقنين وانضباط، ففي هذه الحالة من عدم التقيد، قد تقوده هذه المعرفة إلى مالا يحمد عقباه، بل من الممكن أن تستثمر فيما لا ينبغي أن تستثمر فيه، بحيث يعكس ذلك أثره على الإنسان ضرراً وخسراناً.. لذا وضعت الشريعة قيودها على سير المعرفة ولم تدعها على إطلاقها.. ففضلاً على وجوب تبصر الآيات الكريمة، ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ [8: الرعد] ، ﴿**وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [1–2: العصر] ، ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [36: الإسراء] ، وغيرها من آيات، فإن في المعرفة ما ينفع الناس ومنه ما يضر، وبعضه حق وبعضه باطل، ﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [17: الرعد]، وكذلك فإن عملية الابتلاء تفترض أن يبقى خيار الناس مفتوحاً في كل الاتجاهات، وإلا لم يكن الخيار قائماً، يقول الله تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [7: هود]، ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ**﴾ [48: المائدة]، ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾ [14: القيامة]، وهذا يقتضي ترشيد المعرفة بحيث لا ينبغي المضي فيها على غير ضابط، فبعض المعرفة نافع وبعضه ضار، ينطبق هذا على السلوك أيضاً، لذا كانت عملية الابتلاء– ومن خلالها يتعرض المرء للفتنة أساساً– معنية باختبار الإنسان كي يختار السوي النافع من الأقوال والأفعال فقط، ونبذ خلاف ذلك، يقول تعالى مبصراً بعملية الابتلاء وتعرض الناس للتمحيص بعضهم عن بعض: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾[36: القيامة]، ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[115: المؤمنون] ، ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ [2: العنكبوت]، ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [3: العنكبوت]، ويقول تعالى منبهاً إلى عملية الابتلاء مفرقاً بين ما ينبغي التوجه إليه مما لا ينبغي: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا**﴾ [8: الكهف]، ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [2: الملك]، ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [7–10: الشمس].

إذن ومن حيث المبدأ فإن عملية الابتلاء تكمن هنا، في كيفية التصرف بالمعرفة واستثمارها على الوجه الأفضل، ففي ضوء هذه العملية، وخضم أنواع المعرفة والسلوك التي لا حدود لها، والتي تتراوح بين أن تكون نافعة أو ضارة، تقية أو فاجرة، يتم التقييم والجزاء، لذا يقول تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[9: الزمر]، من هنا فإن الفوز بالابتلاء منوط بالعلم النافع والسلوك السوي، فهذا ما ينبغي أن يصار إليه بقدر وسع الإنسان، وما يجد نفسه فيه من ظروف ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [286: البقرة]، ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾[21: الطور]، أما الجاحد فهو في غفلة وهو من الذين ﴿**خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾[7: البقرة]، أو من يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[93: النحل]، وهذا يحض الإنسان على التعرف إلى الأمور والتبصر بها وتحمل المسؤولية عن خياره.

من هنا جاء تزويد الإنسان بالعقل والعاطفة ومتعلقاتهما مرشدين لتوجهاته، كي يتجه إلى المعرفة النافعة والسلوك القويم، ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [3: الإنسان] والعقل بهذا الاعتبار هو القسط والميزان والعدل، وهو ما ينضبط به أمر الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [18: آل عمران]، وكذلك فإن من الميزان ما تتضمنه الشريعة من معقولية يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [25: الحديد]، وهو أيضاً ما أودعه الله الإنسان ليزن به ﴿**وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ**﴾[182: الشعراء]، وما هذا إلا لأن المعرفة نظرا وعملا مفتوحة الآفاق وينبغي أن تخضع إلى الضبط بالقسطاس والميزان العدل، أي استعمالها فيما ينبغي أن تستعمل له.

لقد نبه القرآن الكريم إلى وجوب إعمال العقل واختيار المعرفة النافعة والسلوك القويم، مبينا الفرق بين هذا وغيره بتمثيلات غاية في الوضوح ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلَا الأَمْوَاتُ**﴾ [19-22: فاطر]، ﴿**أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [35: يونس].

من هنا فلا تسوية بين الأمرين، وعلى أحد الخيارين يتوقف الجزاء ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[28: ص]، ﴿**أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ**﴾[18: السجدة]، ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[19: الرعد] ، ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ**﴾[21: الجاثية]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾[70-71: الأحزاب]، ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ [72: الأحزاب].

من هنا يجب أخذ العبرة والاتعاظ، وبما أن الإنسان حامل للأمانة أصلاً حين زود بالعقل ومتعلقاته بما يصلح لإرشاده إلى المعرفة النافعة والسلوك القويم، لذا تعرض للابتلاء وأوكل لخيار وتدبير نفسه كي يجعل مسيرته نافعة، ولكن الإنسان نتيجة الابتلاء قابل لأن ينحرف ويتوه في سيره، لذا منّ الله عليه بإرسال رسله كي يصوبوا في مسيرته دون أن يجعل للرسول مهمة غير مهمة الإرشاد والتوجيه، والحث على وجوب الامتثال للحق، وتأدية الدور النافع المفيد، والدعوة إلى النظر والتفكر والتدبر في كتاب الله وسنة نبيه والكون الفسيح، كي يستفيد منه في تحسين معرفته وضبط سيره..

أما إذا غفل بعض الناس عن استثمار هذه الهبة الربانية، وكان بعضهم أقوم من بعض، فلا يعود هذا إلى أن الناس غير متساوين في الأصل في التكليف والقدرة على الاختيار الصائب.. ولكنه يعود إلى عدم الاكتراث بضبط المعرفة والسلوك، وإلى الانغماس في غير المعرفة النافعة، بإتباع الهوى والتمادي في الانحراف عن الطريق السوي. يقول تعالى في معرض اختلاف المسائل مع أن الشروط الموضوعية واحدة ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [4: الرعد].

لذا دعا الله سبحانه وتعالى إلى النظر والتفكر والتدبر للقرآن الكريم والكون الفسيح، واستثمار المعرفة الناتجة عن ذلك في كل مجال، وهذا معنى الاعتبار، أي العبور مما هو مدرك ومستوعب إلى

غيره، ويرتبط هذا بالميزان أيضاً.. يقول تعالى: ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ *وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ* فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[17-22: الغاشية] ، ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[191: آل عمران]، ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾ [82: النساء]، ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾ [21: الزمر].

وبهذا يتبين لنا دور المؤمن المعرفي، حين يتبع إرشاد الله سبحانه وتعالى وإرشاد نبيه واستثمار الميزان المودع بهما وبنفسه، كي يتحلى بالمعرفة النافعة والسلوك السوي.. من هنا لم يوكل الله سبحانه وتعالى لنفسه سوى الهداية، ولم يلزم المكلفين بشيء إلا أن يختاروا ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [11: الرعد] وهذا ما يوصي الله سبحانه وتعالى به الرسول الكريم ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [99: يونس]، ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾ [29: الكهف].

ولم يجعل أيضاً لرسوله سوى البلاغ، لأن الإنسان قادر على التمييز والاختيار، فهو مبتلي بهذا، وعليه أن يحسن الاختيار طالما زود بما يمكن أن يهيئ له حسن الاختيار.. ومعنى هذا أن ينشط كل من تلقاء نفسه لتفهم نور الرسالة ونور النبوة ونور نفسه والكون أمامه وموازينها جميعا، ويستثمر كل هذا في ما هو نافع مفيد، يقول تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [12: التغابن]، ﴿**فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [20: آل عمران]، ﴿**مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾ [99: المائدة]، ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾[40: الرعد] ، ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [127: النحل].

وهذا يؤكد على صيانة الحرية الإنسانية وترك الخيار لكل أن يتخذ قرار مصيره، وأن ليس للشريعة إلا أن تهدي الناس وتبين لهم ما هو حق وخير، وتجنب ما هو باطل وشر، وأن ليس للرسول إلا البلاغ المبين، وللناس حينئذ أن يختاروا بأنفسهم، ينطبق هذا على المؤمن الداعية أيضاً يقول تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ [105: التوبة]، ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [112: هود]، ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ**﴾ [96: المؤمنون] ، ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [46: فصلت]، ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[199: الأعراف] ، ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾ [25-26: الغاشية] ، فالناس متساوون في الحرية ليختاروا تبعاً لها، ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا**﴾[43: الفرقان]، ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [7: الزمر].

فإذا ما اختار المرء الإيمان، وتفهم خطاب الشريعة، وتحلى بالسوية المعرفية والسلوكية التي تدعو إليها، فحينئذ عليه أن ينشط من تلقاء نفسه لتفهم نور الرسالة ونور النبوة ونور نفسه، والكون الفسيح أمامه، وأن يستثمر هذا جميعاً بما هو نافع مفيد: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ**

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [18: الزمر] .. وسيرى حينئذ بوضوح معنى قوله سبحانه وتعالى: **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾** [18: الأنبياء]، **﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾**[33: الفرقان] ومن هنا سجل القرآن الكريم جميع الاعتراضات التي يمكن أن توجه إلى الشريعة ورد عليها بالحجة والبرهان الساطع، مطالباً مدّعوها بأن يرتقوا في دعاواهم إلى الحجة والبرهان: **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [111: البقرة] ، ذلك أنه **﴿لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾** [34: فصلت]، **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** [9: الزمر] ، بل ترك أيضاً للحجة أن تبقى قائمة حتى يوم الحساب: **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** [111: النحل] بل هي دعوة للحق والسلام **﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾** [14: الرعد] **﴿وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [25: يونس].

فإذا ما تحقق هذا، وجلّه عبادة، وعمل الإنسان بما علم، وأطاع الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم فيما كلف به، فحينئذٍ يفوز الإنسان بتجربته وابتلائه الفوز الأكبر في دنياه وآخرته ..

ما نخلص إليه هنا، أن المعرفة والعبادة بينهما من التماهي والتكامل ما لا يحصى، شأنهما شأن النظر والعمل، فإذا ما كانت المعرفة في ناحية والعبادة في ناحية أخرى، كان ذلك غير مثمر لما هو مبتغى ولا يؤدي هذا الحال إلا إلى فقر كليهما.. أما إذا روعيا معاً في كل مرحلة من مراحل التجربة الحياتية، فإن ذلك يؤدي إلى الخير العميم والنعيم المقيم.. ويبقى لكل مثوبته بمقدار ما يحصله منهما معاً..

ختاماً لهذا البحث وإتماما للفائدة، سنلجأ هنا إلى بيان طبيعة التعريف، وهو أساس المعرفة، وذلك من خلال تحليل الآية الكريمة: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** [13: الحجرات]، ففي هذه الآية الكريمة ذكر للتعارف – وأساسه المعرفة – مرتبطاً بتوزيع الناس إلى شعوب وقبائل، وما يستتبعها بالطبع صعوداً ونزولاً، بما يندرج ضمن الكليات الخمس، جنس الأجناس، الجنس، النوع، الفصل، الخاصة.. والتعريف الحقيقي في عرف المناطقة إنما يكون بالحد، سواء أكان تاماً أم ناقصاً.. والتعريف بالحد التام لأي شيء من الأشياء يستلزم أبداً ذكر جنسه، ثم الفصل الخاص به، مثلما نعرف الإنسان بأنه حيوان ناطق، فالحيوان جنس والناطق فصل، والفصل هو ما يميز الشيء عن غيره، سواء أكان نوعاً أو فرداً.. والقاعدة المتبعة هنا في التعريف، أي تعريف، لأي شيء، هي أن يتم اللجوء إلى ما هو أعم وأشمل منه، ثم ما هو خاص به لا يتعداه إلى غيره.. مثلما أن الحيوان أعم من الإنسان في الحالة السابقة .. والنطق (فصل) هو ما يميز الإنسان عن بقية الحيوان في ذات الحالة ..

إن هذا يوضح لنا دور الكليات الخمس في قيام التعريف، ولو أردنا تطبيق هذا على ما جاء في الآية الكريمة، فسنجد أن كلمة شعوب توازي كلمة جنس، وقبائل توازي كلمة نوع، ويمكن إتمام الكليات الخمس من خلال وضع جنس للأجناس ثم فصل وخاصة، ففي حالة الشعوب يكون جنس الأجناس هو الناس جميعاً، ويكون الفصل للنوع الذي هو القبائل، لحمة القربى الدم مثلا، فإذا ما أردنا أن نعرّف القبيلة فإننا نقول عنها أنها شعب في حال الجنس القريب، أو أناس في حال الجنس البعيد، بينهم لحمة القربى بالدم.. وهكذا في كل العبارات الموازية، من هنا يتبين لنا أن تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل هو الذي ييسر عمليات التعريف، وبالتالي التعارف بين الناس، ولطالما تم تعريف شخص ما بأنه، ثقفي قاتل إلى جوار الرسول، أو أنه تميمي أنشد مدحاً في الخليفة فلان.. وإذا ما استأنسنا برأي عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم في أساس نشأة الكليات الخمس، وبالتالي التعريف، لوجدنا

أنه يرد اكتسابها المنطقي إلى سلالة الأسلاف، أي التكوين القبلي، فكما أن السلالات تتفرع من بعضها فإن هذا هو مصدر تصور الكليات الخمس في نظره.. وهذا يتفق من وجه أو آخر مع ما جاء في القرآن الكريم من أن عملية التعريف تعتمد على انقسام الناس إلى شعوب وقبائل.. فهذا هو الذي ييسر التعريف والتعارف حقيقة.. وإذا ما ربطنا تالي الآية بمقدمها ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ لوجدنا أن هذا التعريف لا يستكمل إلا بأن يكون مقيداً بالتقوى.. وبذلك ينال العارف إكرام الله سبحانه وتعالى، الأمر الذي يربط المعرفة تعريفاً وتعارفاً بالعبادة والسلوك السوي النافع.